



الاسم والرسم، تجليات الأسماء الحسنى في سلوك الإنسان قراءة في ديوان أبي مدين التلمساني

*Name and Impact, Manifestations of Allah's Names in Human Behavior
A reading into the Diwan of Abu Madyan of Tlemcen*

مديحة دبابي *

المدرسة العليا للأساتذة سطيف (الجزائر)

m.debabi@ens-setif.dz

تاريخ النشر: 2024/11/15

تاريخ القبول: 2024/09/30

تاريخ الاستلام: 2024/01/24

ملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى معالجة قضية التعلق بين الاسم والرسم؛ أو أثر أسماء الله في سلوك الإنسان كما تظهر في الشعر الصوفي الجزائري، حيث نعتز داخل الأدب الصوفي عموماً، وشعر أبي مدين التلمساني خصوصاً اشتغالا حثيثاً على تربية أخلاقية تطبيقية تعرج من خلالها النفس إلى "حضرة القدس"، ومن هنا يهدف هذا البحث إلى فحص التشابك على المستوى الروحي والدلالي بين الاسم والرسم، أو بين نورانية الاسم والقلب باعتباره مهبط الأنوار ومستودع الأسرار، وتجليها في سلوك الإنسان على المستوى الظاهر من خلال ديوان أبي مدين التلمساني، اعتماداً على المقاربة الحوارية لكشف جمالية الأدب الصوفي الجزائري.

الكلمات المفتاحية: الأسماء الحسنى؛ التصوف؛ أبو مدين التلمساني؛ الرسم.

Abstract:

The present study seeks to delve into the issue of interweaving between name and impact and the influence Allah's names cast on human behaviour as manifested in Algerian Sufi poetry. At the heart of this verse, and precisely the diwan of Abu Madyan of Tlemcen, can be found a keen interest in the promulgation of embodied virtue: a virtue through which the soul soars towards the presence of the divine, Allah. Henceforth, the present work examines, on a spiritual as well as a Semantic level, the entanglement between name and impact. Additionally, it aims at perusing the countenance between the name and the heart, given that the latter is the descent of lights and where secrets reside and how the name reveals its essence through the demeanour of its bearer. In so doing, the study employs a dialogical approach to bring to light the aesthetic and esoteric aspects of Algerian Sufi Literature.

Keywords: Allah's names; sufism; abu madyan of tlemcen; impact.

* المؤلف المراسل.

1. مقدمة

تُعد قضية التَّزكية والتَّربية الرُّوحية في الخطاب الصَّوفي من أهم القضايا ومَصَبِّ كل ما كَتَب القوم شعرا ونثرا، كونها الطَّرِيق الَّتِي توصل الشَّاعر/ المريد/ العاشق/ ذات المحبة إلى الله/ الذات المحبوبة، فيعُرِّج من خلالها الإنسان في مراتب النَّفس وصولا لحضرة القدس. ف"التَّصَوُّفُ: علم يعرف به كيفية السَّلوِك إلى حضرة ملك الملوك، أو تصفية البواطن من الرَّذائل وتحليتها بأنواع الفضائل، أو غيبة الخلق في شهود الحق، أو مع الرجوع إلى الأثر، فأوله علم، ووسطه عمل، وآخره موهبة."¹ ولا يكون هذا التَّرقِي إلا بالمجاهدة، فلا تنال المشاهدة إلا بالمجاهدة، وهذا مدار الأمر في الخطاب الصَّوفي عموما. وقد عَبَّر الصَّوفيون عن وجدهم وأحوالهم شعرا رمزيا، مُشَبَّعا بدقائق المعاني ولطائف الإشارات، يصعُب على غير المختص كشف ما غمُض منها، وفهم معانيها الدقيقة، ولعل داخل هذا الأدب تبرز لنا رمزية القلب باعتباره من اللطائف الربانية الروحانية، وهو ما ينظر إليه الله عز وجل "إن الله خلقك لك واصطفى منك لنفسه قلبك"² لهذا اشتغل الصَّوفي على تصفية القلب من الأغيار، ليصفو لله الواحد القهار.

اعتمادا على المقاربة الحوارية تعالج هذه الورقة وظيفة الأدب الصوفي المتمثلة في علاج النَّفس وعلل القلب وفق منهج التَّربية الرُّوحية الصَّوفي؛ ونظرا لكثرة الدِّراسات النَّقدية التي تشتغل على الطَّاقة الإيحائية للرمز الصوفي وجماليته، تحاول دراستنا التَّوجه رأسا إلى الكشف عن الجانب التربوي الإصلاحي الثاوي في النصوص الشعرية الصوفية؛ ذلك أن ما يقوله الصوفي هو ثمرة أخلاق تطبيقية. وسنركز بحثنا على ورود الأسماء الحسنى في شعر أبي مدين التلمساني، وأثرها وتجلياتها الإلهية النُّورانية في سلوك العبد، بناء على ما جاء في كثير من كتب القوم بأن للاسم أثر على العبد، حيث تتم تخلية الظاهر وتحلية الباطن فَتَرِدُ التَّجليات على العبد، ونذكر من ذلك ما قاله الإمام القشيري: "يظهر نور الاسم على الوجدان فيصقِّيه، وعلى العقل فيذكيه، وعلى العصب فيقويّه، وعلى الدَّم فينقيّه، وعلى القلب فينيره ويحييه، وعلى الرُّوح فيرقِّمها ويُسَّعشعها ويروِّحها بنشوة الحب والشوق إلى خالقها."³ بناء عليه صغنا الإشكالية على النَّحو التالي: ماهي تجليات الأسماء الحسنى في سلوك الإنسان حسب ما ترد في ديوان أبي مدين التلمساني الفقيه والشاعر الصوفي؟ ومن الأهداف التي تتوخى هذه الدراسة الوصول إليها: كشف التَّعالق على المستوى الرُّوحي والدَّلالي بين الاسم والرسم أو بين نورانية الاسم وأنوار القلب.

1- عبد الله أحمد بن عجيبة، معراج التَّشَوُّف إلى حقائق التَّصَوُّف، ص، ص 25، 26

2- معي الدين ابن عربي، الفتوحات المكية، ج 8، ص 277

3- أبو القاسم عبد الكريم القشيري، شرح أسماء الله الحسنى، ص، ص 24، 25 (الهامش)

وقبل الدخول إلى معالجة القضية التي تهتم لها الورقة البحثية نتعرف على الشعر الصوفي عامة وشعر أبي مدين شعيب خاصة.

2. شعر أبي مدين الصوفي: الطاقة الشعرية والروحانية

الشعر الصوفي شعر ديني، في ظاهره يماثل شعر الخمرات والغزل والوصف؛ ذلك أن الشعر الصوفي كان "تطوراً للشعر الديني الإسلامي، وتطور للغزل العذري المتصوف الهائم في مساح الجمال الروحي، وكان قسم منه تطوراً لشعر الخمرات في الأدب العربي، وقسم آخر وهو الخاص بوصف الذات الإلهية كان تطوراً لفن الوصف في أدبنا القديم".¹ غير أن الحقيقة أن الأدب الصوفي يختلف عن هذه النماذج الشعرية، فإن كان يشترك مع شعر الغزل وشعر الخمرات في الموضوع والمعجم، إلا أنه في عالمه الدلالي كون آخر مفارق لهما، ذلك أن دلالة الخمرة أو العشق في الشعر الصوفي تختلف تماماً عن دلالتها في شعر الغزل والخمرات؛ فالشعر الصوفي شعر روحاني بالدرجة الأولى وينبغي أن يفهم في هذا السياق. فالكتابة الصوفية كتابة رمزية فيها الكثير من اللطائف والإشارات، ما يجعله شعراً بعيد الغور، يستمد من الرمز طاقته الإيحائية، فلا يَبُوح أو يصرِّح بل يشير ويلمِّح؛ حتى لكأن المعنى يُشرق ويغيب في آن معا "إن الصوفيين نزعوا في شعرهم نزعة ذاتية عميقة، فضربوا في عالم ما وراء الحس، وحاولوا أن يصلوا بقلوبهم إلى ما لا يتسنى للعقل والحواس الوصول إليه".² فالمعاني الروحية المبتوثة في شعر الصوفية، تجعله شعر لطائف ورفائق، شعر أحوال ومواجد عشق الذات الإلهية، ونشوة القرب والأنس في حضرة الله عز وجل. وفي هذا الإطار يقول أبو مدين الغوث:

تَسَمَّيْتُ بِالْمَجْنُونِ مِنْ أَلَمِ الْهَوَى *** وَصَارَتْ بِي الْأَمْثَالُ فِي الْحَيِّ تَضْرِبُ
فَيَا مَعْشَرَ الْعُشَّاقِ مُوتُوا صَبَابَةً *** كَمَا مَاتَ بِالْهَجْرَانِ قَيْسُ الْمَعْدَبِ³

ويقول:

وَشَرَّابُنَا مِنْ لُطْفِهِ وَغِنَاؤُنَا *** نَعَمُ الْحَبِيبُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ⁴

تأسيساً على ما سبق فإن قراءة النص الشعري الصوفي تشترط لاستقبال المعاني الدقيقة قدرة من القارئ مكافئة للطاقة الإيحائية للرموز الصوفية، حتى يلحق فيض الدلالة الثأوية في الألفاظ الفائقة، فيقتنص الإشارات ويفهم المراد، ومن مزالق القراءة أن يُحمل النص الصوفي على الظاهر، الأمر الذي يحدث الالتباس وسوء فهم للنص الصوفي، فلا يميّز القارئ بين الرمز الصوفي وبين شعر الحب العذري والحسبي، أو شعر الخمرات. ولكن مدار الأمر في القراءة هو فتح الحوار بين القارئ والنص؛ قراءة تنصت

1- محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي، ص 167

2- المرجع نفسه، ص 177

3- ديوان أبي مدين شعيب الغوث، ص 14.

4- المرجع نفسه، ص 20

للنص وتزنه، وتعلّق كل الأحكام المسبقة بين ظفرين؛ نمط من القراءة العاشقة التي لها إرادة المتعة لا المصادر، فتكشف ما غمّض من حقائق العلوم والمعارف والأسرار داخل هذا الشعر الروحي الإسلامي، المتواشج بأنوار الجمال وأسرار الجلال، وهو ما يجعلنا نقول: إن الشعر الصوفي تجربة كشفية ذوقية روحية فريدة وخاصة جدا، لا يستقيم نفها أو فرض التطابق عليها مع أي تجربة شعرية أخرى حتى نحافظ على فرادتها وخصوصيتها وجماليتها.

يُعد الشاعر أبو مدين الغوث¹ واحدا من أقطاب الشعراء الصوفيين الكبار، الذين هاموا في شعرهم بمحبة الله فكان شعره حاملا لأفكارهم الصوفية، كما كان زاخرا بالقيم الأخلاقية التطبيقية، سعيًا إلى إحداث نهضة روحية تنطلق من صحبة الفقراء/المتصوفة في درب المحبة. إذ يقول:

ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا *** هم السلاطين والسادات والأمرا
فاصحبهم وتأدّب في مجالسهم *** وخلّ حظك مهما خلفوك ورا²

وقد أكد في شعره على لزوم صحبة الفقراء؛ والصحبة هي صحبة معرفة، صحبة نهضة روحية، يقول السكندري "لا تصحب من لا يُنْهَضُك حاله ولا يدُلُّك على الله مقاله".³ فالصحبة تحمل معنى النهضة الروحية، بتحقيق العبودية لله، والتحرر من كل أشكال العبودية لما سوى الله، فكلما ازداد الإنسان عبادة ازداد قربا، وكلما ازداد قربا ازداد مددا ووهبا، فتكثر أنواره وتصفو أسرارها، فالنهضة تبدأ من الدّاخل، العروج من النّفس الأمارة بالسوء إلى النفس المطمئنة، الراضية المرضية، إلى الإنسان الكامل فالصوفي من يصبح خليفة على نفسه أولا، ثم خليفة الله على أرضه ثانيا.

أبو مدين التلمساني شيخ مربٍ، وشاعر صوفي، مهمته إرشاد وتوجيه الخلق إلى الحق، ليسبحوا في بحار المحبة التي هي أعلى درجات المعرفة؛ "المحبة: ميل دائم بقلب هائم، ويظهر هذا الميل أولاً على الجوارح الظاهرة بالخدمة، وهو مقام الأبرار، وثانياً على القلوب الشائقة بالتصفية والتحلية، وهو مقام المريدين السالكين، وثالثاً على الأرواح والأسرار الصافية بالتمكين، من شهود المحبوب وهو مقام

1- أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري الأندلسي؛ ولد في الأندلس، عام 509 هـ، تعلم بفاس واستقر ببجاية، وهو فقيه صوفي وشاعر مجاهد، ومرشد مربٍ، توفي في تلمسان وقد تغنى بتلمسان أرض العلم قائلا:

تلمسانُ دارُ العِلْمِ سَاعَدَكَ الدَّهْرُ ***** بِمَدْرَسَةٍ يَشْتَاقُهَا السَّعْدُ وَالْفَخْرُ
تُذَكِّرُنَا قَوْمًا تُنَوِّبِي ذِكْرَهُمْ ***** قُرُونًا وَأَهْلُ الْعِلْمِ حَقُّهُمْ الذِّكْرُ

كان فاضلا زاهدا عارفا بالله تعالى، منذ صغره كانت نفسه تتوق للعبادة والتعرف على الله، فسلك الطريق للعلم والمعرفة وهرب من رعي الأغنام لإخوته، واستقر بفاس يتعلم، ثم رحل أبو مدين شعيب الغوث بعد هذه المرحلة الأولية إلى المشرق لأداء فريضة الحج فلقى بعرفة الشيخ عبد القادر الجيلاني الحسني، وعنه أخذ كثيرا من الأحاديث الشريفة، وأودعه كثيرا من أسرارها، وألبسه الخرقه بدوره، مما جعل أبا مدين يفتخر بصحبته "ويبعده من أفضل مشايخه الأكابر" وقد خلف الشيخ أبو مدين شعيب الغوث كلاما وأدعية وشعرا، وشعره مستكمل النفاسة لفظا ومعنى، والبعض منه يغني به وينشد في محافل الذكر. ينظر ديوان أبي مدين شعيب الغوث، ص-ص 5-7، 19

2- ديوان أبي مدين شعيب الغوث، ص 23

3- ابن عطاء السكندري، الحكم العطائية، ص53

العارفين.¹ فالمحب لا يرى التكليف في الشريعة عناء بل تشريفاً، فيحمد الله عز وجل على فضله أن ذكره فيمن ذكره. يقول أبو مدين الغوث:

لَكَ الْمِنَّةُ الْعُظْمَى مَا هَدَيْتَنَا *** وَدَيَّنْتَنَا حَنِيفاً مُطَهَّراً²

إنَّ السير إلى الله له مقامات للترقي من الشريف إلى الأشرف، ومن الحسن إلى الأحسن، بالاجتهاد في الطاعة والسمو الأخلاقي وتحقيق العبودية لله عبر المجاهدة والرياضة الروحية فبلوغ كرامة "يُجِبُّهُمْ وَيُجِبُّونَهُ" [المائدة 54] لا تُنال إلا بالاستقامة "قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ" وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" [آل عمران 31] - وفضل الله سابق - فالرَّهَان الحقيقي في مشروع التَّزْكِيَّة هو الإصلاح؛ إصلاح الجوارح والقلب والسَّريَّة.

إن السَّلوك في طريق القوم يُورث أحوالاً ومقامات، ففي كل شعره نجد أبياتاً كنسمات روحية، أحوالاً متغيرة تهبُّ على العبد مثل: البكاء، الشوق، والوحشة، والأنس، السكينة والطمأنينة؛

إني إذا ما ذكرتُ رَبِّي *** يَهْتَرُّ شَوْقِي إِلَى لِقَاہُ

طَابَتْ حَيَاتِي وَضَاءَ قَلْبِي *** بذكر ربي جل ثناؤه

مَا ذَا قَ طَعَمَ الْغَرَامَ إِلَّا *** مَنْ عَرَفَ الْوَصْلَ أَوْ ذَرَاهُ³

حال متقلبة بين رجاء وخوف، أو قبض وبسط. تعبير لغوي وجسماني عن وجده، بما هو أثر هذا الحب قولاً أو فعلاً أو شعوراً على الجوارح والقلب والسريَّة. يقول أبو مدين:

وَعِنْدِي شُهُودٌ لِلصَّبَابَةِ وَالْأَسَى *** يَزْكُونَ دَعْوَايَ إِذَا جِئْتُ أَدْعِي

سُهَادِي وَوَجْدِي وَآكُتْنَابِي وَلَوْعَتِي *** وَشَوْقِي وَسُقْمِي وَأَصْفِرَارِي وَأَدْمُعِي

وَمِنْ عَجَبٍ أَنِّي أَحْنُ إِلَيْهِمْ *** وَأَسْأَلُ شَوْقاً عَنْهُمْ وَهُمْ مَعِي

وَتَبْكُهُمْ عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوَادِهَا *** وَيَشْكُو النَّوَى قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْلُعِي⁴

وفي شعر أبي مدين تجد العبارة الرشيقة، والإشارة الخفية، واللطيفة الرقيقة، التي يفقهها خاصة الخاصة، وفي هذا يرى مقدِّم ديوانه أن شعره كان صدى صادقا لنفس مفعمة بحب الله؛ صدى أكبر من كل حدودٍ شعريةٍ من كلمة ووزن، ففاضت الإشارة حتى لم يبق للعبارة معنى، وعجز الوزن عن مجازاة إيقاعات النفس، وبجانب هذا الأفق الشعري الباذخ كان لشعره وظيفة تربوية وتعليمية.⁵ فهذا الأفق

1- ابن عجيبة، معراج التشوف إلى حقائق التصوف، 32.

2- ديوان أبي مدين شعيب الغوث، ص 22

3- المرجع نفسه، ص 82

4- المرجع نفسه، ص 29

5- ينظر ديوان أبي مدين شعيب الغوث، ص 8

الشعري البديع متواشج مع الوظيفة التربوية التعليمية؛ التي ينهض عليها شعره، الذي جمع بين الإمتاع والتعليم.

3. التجليات النورانية على القلوب وأثرها في الجوارح

السير إلى الله هو طريق الغيب لا طريق الشهادة، ورأس أمره المحبة، حيث يقول الشاعر:

وَشَرَابُنَا مِنْ لُطْفِهِ وَغَنَائُنَا *** نَعَمُ الْحَبِيبُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ¹

والسير هو قطع الحجب عن معرفه الحق ف"المعرفة هي ارتفاع الحجب عن غيوب حقائق الصفات والأسماء".² فهذا السفر ميدانه القلب، والسير هنا سير معنوي داخل النفس فما يحجب الإنسان عن معرفة الحق إلا الوقوف مع النفس والسيوى، هذا السفر منتهاه وصول القلب إلى معرفة ربه والفهم عنه:

أَهْلُ الْمَحَبَّةِ بِالْمَحْبُوبِ قَدْ شَغِلُوا *** وَفِي مَحَبَّتِهِ أَزْوَاحُهُمْ بَذَلُوا
وَحَرَّبُوا كُلَّ مَا يَفْنَى وَقَدْ عَمَرُوا *** مَا كَانَ يَبْقَى فَيَا حُسْنَ الَّذِي عَمِلُوا
لَمْ تُلْهِمَهُمْ زِينَةُ الدُّنْيَا وَزُخْرُفُهَا *** وَلَا جَنَاهَا وَلَا حُلِيَّ وَلَا حُلُلُ
هَامُوا عَلَى الْكُونِ مِنْ وَجْدٍ وَمِنْ طَرِبٍ *** وَمَا اسْتَقَلَّ بِهِمْ رِبْعٌ وَلَا طَلُلُ
دَاعِي التَّشَوُّفِ نَادَاهُمْ وَأَقْلَقَهُمْ *** فَكَيْفَ يَهْتَوُوا وَنَارُ الشَّوْقِ تَشْتَعِلُ³
وشرط الطريق صدق التوجه والمسكنة فالدخول على الله يكون من باب الدّل والفقر:

أَنَا الْمُسْكِينُ فِي غَفْلَةٍ *** غَارِقٌ فِي بَحْرِ الْمَعَاصِي⁴

المسكنة و الافتقار هي خروج الإنسان من حوله وقوته وعلمه، وقطع الأسباب والعلائق، وعدم الالتفات في الطريق للسيوى، وهذا كنه التصوف على الحقيقة؛ صدق التوجه إلى الله، فمن أراد بلوغ الكمال فعليه صدق التوجه وإفراد الله بالعبادة، ذلك أن حقيقة الإيمان أن يتوب الإنسان عن كل ما سوى الله جملة وتفصيلا، فالكل دون الله عدم هالك، وتماشيا مع ما تم ذكره فالعارف المشاهد على الحقيقة يدرك أن لا موجود ولا فاعل على الحقيقة إلا الله "لا فاعل في الكون إلا هو"⁵؛ وفي هذا المقام يقول أبو مدين الغوث وكأنه يرى ويشاهد:

اللَّهُ قُلٌّ وَذَرِ الْوُجُودَ وَمَا حَوَى *** إِنْ كُنْتَ مُرْتَاداً بُلُوعَ كَمَالٍ
فَالْكَلْ دُونَ اللَّهِ إِنْ حَقَّقْتَهُ *** عَدَمٌ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ وَالْعَوَالِمَ كُلَّهَا *** لَوْلَاهُ فِي مَحْوٍ وَفِي اضْمِحْلَالِ
مَنْ لَا وَجُودَ لِذَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ *** فَوْجُودُهُ لَوْلَاهُ عَيْنُ مُحَالِ

1- المرجع السابق، ص 20

2- أيمن حمدي، قاموس المصطلحات الصوفية، ص 88

3- ديوان أبي مدين شعيب الغوث، ص 31

4- المرجع نفسه، ص 71

5- ابن عربي: الفتوحات المكية، ج 8، ص 54

فَالْعَارِفُونَ قَنُوا وَلَمَّا يَشْهَدُوا*** شَيْئاً سِوَى الْمُتَكَبِّرِ الْمُتَعَالِ
وَرَأَوْا سِوَاهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ هَالِكاً*** فِي الْحَالِ وَالْمَاضِي وَالْأَسْتِقْبَالِ
فَالْمَحْ بِعَقْلِكَ أَوْ بِطَرْفِكَ هَلْ تَرَى*** شَيْئاً سِوَى فِعْلٍ مِنَ الْأَفْعَالِ
وَانْظُرْ إِلَى عُلوِّ الْوُجُودِ وَسُفْلِهِ** نَظْراً تُؤَيِّدُهُ بِالْإِسْتِدْلَالِ
تَجِدُ الْجَمِيعَ يُشِيرُ نَحْوَ جَلَالِهِ*** بِلِسَانِ حَالٍ أَوْ لِسَانِ مَقَالٍ
هُوَ مُمَسِّكُ الْأَشْيَاءِ مِنْ عُلوِّ إِلَى ***سُفْلٍ وَمُبْدِعُهَا بِغَيْرِ مِثَالٍ¹

إن جوهر ما تقرّره الأبيات وتؤكد عليه هو أن الإنسان المبصر لا يرى إلا الله على الحقيقة وكل ما سوى الله هالك "وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" [القصاص 88]، ولهذا فالعارفون لما شهدوا الحقيقة هجروا كل ما سوى الله، ونلاحظ من خلال أفعال الأمر (انظر، ذر، المح، واعلم...) طلباً من الشيخ على إفراغ القلب مما سوى الله الذي بيده ملكوت كل شيء. والقلب أساس السير، فهو مستودع السر "الْقَلْبُ أَسَاسُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَحَيَاتُهُ وَمَوْتُهُ مِفْتَاحُ النَّفْعِ وَالضَّرِّ".² فالقلب يتقلب نوراً أو ظلاماً، وبين هذا وذاك تنتشر هذه الحقيقة على الجوارح أثراً لفعل القلب وحركاته فيسعد الإنسان أو يشقى وفي هذا ينشد أبو مدين قائلاً:

والقلب سر والبشائر جمّة*** وَالصِّدْرُ رَحْبٌ وَالْحَيَاةُ حَيَاتٌ³

ويرى حجة الإسلام الغزالي أنّ القلب هو أساس المعرفة والعلم بالله، وما الجوارح إلا تبع له، تصلح بصلاحه أو تدنس بظلامه "هو المطيع بالحقيقة الله تعالى وإنما الذي ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره، وهو العاصي المتمرد على الله تعالى وإنما الساري إلى الأعضاء من الفواحش آثاره، وبإظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه".⁴ وللقلب القدرة على الكشف بفضل الإخلاص والتصفية والطاعة.⁵ وقد أحصى الشيخ محمد زكي إبراهيم أفعال وحركات القلب المرضي والمُردي منها كما وردت في القرآن الكريم ونأخذ منها مثلاً من هذا وذاك- لأنّ المقام لا يتسع لذكرها جميعاً- فالقلب مستقر الإيمان قال تعالى: "حَبِّبْ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِكُمْ" [الحجرات 07] في المقابل القلب محل الزَّيغ "في قلوبهم زَيْغٌ" [آل عمران 07] فهو في مواضع مشرق الأنوار ومهبط الأسرار، ومن جهة أخرى مجمع المكاره ملتقى مسأخط الله، وينتهي محمد زكي إبراهيم إلى القول: "هداية القلب إلهام وتوجيه وأسرار، وكشوف، وشهود،

1 - ديوان أبي مدين شعيب الغوث، ص30

2 - أبو العباس أحمد زروق، إعانة المتوجه المسكين إلى طريق الفتح والتمكين، ص17

3 - المرجع نفسه، ص15

4- الغزالي، إحياء علوم الدين، ص875

5 - ينظر محمد زكي إبراهيم، أبجدية التصوف الإسلامي بعض ماله وما عليه، ص84

ومعارف، وسمو، وترق في معارج القرب لتحقيق معنى الهجرة إلى الله والفرار المطلوب منا إليه ¹ فنور القلب يتأتى من تحقيق تمام العبودية لله .

أما عى البصيرة أو مرض القلب فيتأتى من المعصية "عَى الْبَصِيرَةِ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: إِرْسَالُ الْجَوَارِحِ فِي مَعَاصِي اللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّصَنُّعُ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالطَّمَعُ فِي خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى" ² فالعلة في القلب وهو محل التطهير والتصفية والتزكية، وبتركيبته وجلاءه تحصل أنوار الإيمان فيه؛ أي إشراق نور المعرفة ³ . بناء عليه يبدأ الطريق باليقظة والتخلية؛ تخلية القلب وتوبته مما سوى الله، فالمجاهدة الحقيقية هي يقظة النية في كل قول وعمل في السر والعلن؛ الرضى عن الله خيرا أو شرا، واللجوء إليه في النوائب، وطلب المغفرة منه والتضرع إليه.

في ديوان أبي مدين شعيب تحضر الأسماء الحسنى وصفات الله العلى وأفعاله مقرونة بالإقرار بالافتقار إليه وتعظيما له وطلبا للمغفرة والعفو يقول أبو مدين :

يَا عَالِمًا بِالْخَفِيَّاتِ سَأَلْتُكَ يَا مَوْلَى الْمُوَالِي *** امْحِ ذُنُوبًا عَلَيَّا يَا مَنْ عَلَيْهِ اتِّكَالِي

يَا ذَا الْجَلَالِ اغْفُ عَنِّي *** سَأَلْتُكَ بِجَاهِ الْمُكْرَمِ

قَلِ عَثَارِي وَأَجْرَنِي *** مِنْ حَرِّ نَارِ جَهَنَّمَ

يَا خَالِقِي اغْفُ عَنِّي *** يَا مَنْ هُوَ بِالْحَالِ يَعْلَمُ

إِلَيْكَ أَشْكُو مَا بِي أُجْبِرُ يَا مَوْلَايَ حَالِي *** امْحِ ذُنُوبًا عَلَيَّا يَا مَنْ عَلَيْهِ اتِّكَالِي ⁴

فالتوبة مراتب توبة الجوارح عن المعاصي والذنوب وتوبة القلب عن ذكر ما سوى الله حتى تصقل مرآة القلب، وتنقى من كل النكت السوداء، يقول السكندري «كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبُ صُورِ الْأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةً فِي مِرَاتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَرْحَلُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُكَبَّلٌ بِشَهَوَاتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَ حَضْرَةَ اللَّهِ وَهُوَ لَمْ يَنْطَهِّرْ مِنْ جَنَابَةِ غَفْلَاتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَرْجُو أَنْ يَفْهَمَ دَقَائِقَ الْأَسْرَارِ وَهُوَ لَمْ يَتَّبِعْ مِنْ هَفَوَاتِهِ؟» ⁵ فالدخول إلى حضرة الله يحتاج طهارة ظاهرية وباطنية، وعندما يُصَفَّى القلب ويُشْرَقُ بنور ربه يبصر قال تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ" [الأعراف 201] والتذكر كما يفسر ابن القيم الجوزية " حصول صورة من المذكور في القلب، فإذا استحضره القلب وشاهده على وجهه أوجب له البصيرة، فالبصر ما جعل دليلاً عليه فكان في حقه تبصرة وذكرى، والهدى مداره على هذين الأصلين التذكر والتبصر." ⁶

1- محمد زكي إبراهيم، المرجع السابق، ص 86

2- أبو العباس أحمد زروق، إغاثة المتوجه المسكين، ص 18

3- ينظر الغزالي، إحياء علوم الدين، ص 891

4- ديوان أبي مدين شعيب الغوث، ص 71

5- ابن عطاء السكندري، الحكم العطائية، ص 48

6- ابن قيم الجوزية، بدائع التفسير، المجلد الأول، ص 436

إنها عمليا ما يسميه الصّوفيون: التخلي والتحلي والتجلي؛ التخلي عن القبيح قولاً وفعلاً والتحلي بالخلق الرفيع، فيكون العبد أهل عناية وهداية «وَلْيَكُنْ هَمُّكَ فِي تَخْلِيَةِ ظَاهِرِكَ عَنِ الْقَبَائِحِ، ثُمَّ فِي إِقَامَةِ رَسْمِهِ بِوُجُوهِ النَّصَائِحِ، حَتَّى إِذَا صَارَ لَكَ الْفِرَارُ مِنَ الْقَبَائِحِ مَلَكَةً، وَالْوُقُوفُ عَلَى الْحُدُودِ شَبَكَةً، تَوَجَّهَ لِقَلْبِكَ بِالْإِحْضَارِ، وَلِحَقِيقَتِهِ بِالْفِكْرِ وَالْأَذْكَارِ»¹.

وهو ما نجده في شعر أبي مدين التلمساني فهو يقول لكل من يريد قرب الوصال والترقي إلى العزيز الجبار، والوصول إلى الكمال أن الطريق مشروط بالتخلي عن الأكوان والفناء عن الأغيار بشهود الحق، لكن هذا كله ليس مفصلاً عن اتباع الشريعة:

إِنْ شِئْتَ أَنْ تَقْرُبَ قُرْبَ الْوِصَالِ *** هُمْ فِي هَوَى الْمُحِبُّوبِ وَلَا تُبَالِي

إِنْ شِئْتَ أَنْ تَرْقَى *** فَخَلِّ الْأَكْوَانِ

وافن ومت عشقا **** يكن لك الشأن

واتبع الحق **** وادخل للميدان

كَيْ تَبْلُغَ الْمُطْلُوبَ عَلَى الْكَمَالِ *** هُمْ فِي هَوَى الْمُحِبُّوبِ وَلَا تُبَالِي²

فكمال التخلي نفي كل ما سوى الله جملة وتفصيلاً واتباع الحق وامتنال أمره واجتناب نواهيه ليجلس العبد على بساط التحلي هائماً في حب مولاه فيتم له الفتح والتمكين كما ينص كتاب الشيخ زروق، وهنا يقول أبو مدين الغوث:

شهدت نور الحق *** مع شهودي

والمعرفة تشرق *** بلا جحود

وفي المقام أورك *** إلى عودي

ونلت ما نرغب من المعالي **** هم في هوى المحبوب ولا تبالي

تجلى لي المعنى ***** وقد شهدتُ

وفي المقام الأسنى **** قد ارتقيت

وقيل بالحسنى *** وقد سمعتُ

يا أيها المجذوب عظم جلالِي *** هم في هوى المحبوب ولا تبالي³

فعندما يبدأ الشاعر في الإنشاد تحضر الأسماء الحسنى كاسمه عز وجل "الحق" أسماء تصنع أحوالاً وتهب أنواراً وأذواقاً ومواجد هي تجليات إلهية، وفتوحات على السالك / الشاعر / العاشق، فالقلب يستنير بنور الله ويقع الكشف "سُمِّيت تجليات الحق أنواراً على وجه التشبيه، لأن شأن النور أن يكشف الظلمة

1- أبو العباس أحمد زروق، إعانة المتوجه المسكين، ص 91

2 - ديوان أبي مدين شعيب الغوث، ص 75

3 - ديوان أبي مدين شعيب الغوث، ص، ص 75، 76

ويُذهِبها وكذلك تجلي الحق، يكشف عن ظُلْمَةِ الْجَهْلِ ويظهر العلم به ¹ "إنه تجلي شهود ومعرفة؛ وهو ما يظهر على قلوب أهل المعرفة من أنوار وأحوال من أثر الصفات ف" كل اسم له أثر في الكون." ²

4. شرف الأسماء وسعادة العبد وكماله

أمرنا الله عز وجل بالدعاء بالأسماء الحسنى "وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ" [الأعراف 180] فالأمر بالدعاء بالأسماء من أعظم العبادات التي يتقرب بها العبد لربه، والتي تزيد معرفته وطاعة وذلا وانكسارا، ولكل اسم تجليات وأنوار وبركات، يقول سيدنا علي كرم الله وجهه: "فَانْظُرْ أَيْهَا السَّائِلُ فَمَا دَلَّكَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فَأَتَمِّ بِهِ، وَاسْتَضِيءْ بِنُورِ هِدَايَتِهِ" ³ حين تتجلى الأسماء الحسنى على قلب العبد وجوارحه تهيه أحوالا وفتحا فيرتقي مقاماً بعد مقام، هذه الكرامة لا تنال دون مجاهدة واستقامة، وقطع العلائق عما سوى الله. فسالك الطريق سيسطع نوره إذا تم له من الله التوفيق، يقول أبو مدين:

تسلك هذا الطريق *** يسطع نورك شريق

وبالله التوفيق تُعطى لك الأسرار *** لِمَنْ عَرَفَ مَوْلَاهُ الْمَدَدَ الْمَدَدَ ⁴

إن للأسماء دلالة السمو والسمة؛ السمو عن كل الأقدار والافتقار إلى العزيز الجبار، يقول الإمام القشيري "من عرف أسماء الله تعالى يجب أن يتّصف بهذين الوصفين بالسّمو والسّمة. فتعلو همته عن مساكنة الأغيار وملاحظة الرّسوم والآثار، والرّضا بخسيس الأقدار ويتسم بعبادة الجبار ويتّصف بنعت الافتقار ويقوم بين يدي ربّه بشواهد الانكسار." ⁵

الأسماء هي بُراق المعراج من الكون إلى المكوّن، من الخلق إلى الخالق، منك إليه "من عرف اسم ربه نسي اسم نفسه، بل من صحب اسم ربه تحقّق بروح أنسه، قبل وصوله إلى دار قدسه. بل من عرف ربّه سمت رتبته، وعلت في الدارين منزلته." ⁶ فالأسماء الحسنى موصلة لله عز وجل محققة للعبد أعلى المراتب. وأسماء الله الحسنى التي نبحث عنها داخل الديوان هي ما اتفق عليه جمهور المسلمين وهي تسع وتسعون اسماً، أو ما يعرف بأسماء الإحصاء، مع أن لله عزّ وجلّ غيرها استأثر بها في علم الغيب عنده جل وعلا ⁷. ويكون التّعبد بها من خلال فهم معانيها ومدلولاتها، والدّعاء بها يقول ابن القيم «الدّعاء بها يتناول

1- ابن عجيبة، معراج التشوف إلى حقائق التصوف، ص 74

2- محي الدين ابن عربي، الفتوحات المكية، ج 7، ص 289

3- علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، ص 237

4- ديوان أبي مدين شعيب الغوث، ص 51

5- أبو القاسم عبد الكريم القشيري، شرح أسماء الله الحسنى، ص، ص 21، 22

6- القشيري، المرجع السابق، ص 22

7- ينظر الغزالي، المقصد الأسنى، ص 164

يتناول دعاء المسألة ودعاء الثناء ودعاء التَّعبد، وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته ويثنوا عليه بها ويأخذوا بحظهم من عبوديتها.¹

وقد ربط شيوخ الصَّوفية سعادة العبد وكماله بمعرفة الله والتخلق بأسمائه والتَّحلي بمعاني صفاته.² فللعبد بأسماء الله تعلق وتحقق وتخلق، يقول ابن عربي: "فللعبد بأسماء الحق تعالى تعلق وتحقق وتخلق: فالتعلق افتقارك إليها مطلقاً من حيث ما هي دالة على الذات؛ والتحقق معرفة معانيها بالنسبة إليه سبحانه وبالنسبة إليك؛ والتخلق أن تُنسب إليك على ما يليق بك كما تُنسب إليه سبحانه على ما يليق به".³

يعثر الباحث على هذه المعاني الجليلة داخل ديوان أبي مدين الغوث؛ إذ نجد أسماء الله الحسنى: الصمد، الكافي، المغيث، الخالق، العليم، الكريم، العدل، الحكم، ذو الجلال، المصور، البديع، النافع، الضار، المذل، القابض، الباسط، الرافع، الخافض، السميع، البصير، الرقيب، المنعم، الباعث، المحيي، الرزاق...

مُغِيثُ أَيُّوبَ وَالْكَافِي لِيَذِي النُّونِ *** يُنِيلُنِي فَرَجاً بِالْكَافِ وَالنُّونِ

كَمْ كُرْبَةً مِنْ كُرُوبِ الدَّهْرِ فَرَجَتْهَا دُونِي *** وَلَمْ يَنْكَشِفْ وَجْهِي لِمَنْ دُونِي⁴

وتحضر الأسماء الحسنى والصفات العلى حين يصدق الشاعر بالاستغفار معلنا التوبة عن أعمال الظاهر والباطن⁵ مؤكداً ألا مطلوب وملاذ إلا هو عز وجل، ونجد في شعره تمركزاً حول هذين القطبين: صدق اللجوء إلى الله، ورؤية لطف الله بعبد:

إِلَيْكَ مَدَدْتُ الْكَفَّ فِي كُلِّ شِدَّةٍ *** وَمِنْكَ وَجَدْتُ اللَّطْفَ فِي كُلِّ نَائِبٍ

وَأَنْتَ مَلَاذِي وَالْأَنَامُ بِمَغْزِلٍ *** وَهَلْ مُسْتَحِيلُ فِي الرَّجَاءِ كَوَاجِبِ

ثم يستغيث بمولاه باعتباره الملجأ والأمان للعبد:

فَيَا مُلْجَأَ الْمُضْطَرِّ عِنْدَ دُعَائِهِ *** أَغْنِي فَقَدْ سُدَّتْ عَلَيَّ مَذَاهِبِي⁶

ويؤكد حقيقة أن ما يظهر من شدائد وكربات في باطنها لطف خفي، فلطف الله دائماً ينزل مع الشدائد؛ أي بصيرة العبد النافذة ترى الخير في الشر، والنفع في الضر، والعطاء في المنع، فينبغي للمؤمن

1- ابن قيم الجوزية، المرجع السابق، ص 431

2- ينظر ابن عربي، الفتوحات المكية، ج 8، ص 51، والغزالي: المقصد الأسنى، ص 45، وابن عطاء الله السكندري: الله القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد، ص 40

3- محيي الدين ابن عربي، كشف المعنى عن سر أسماء الله الحسنى، ص 26

4- ديوان أبي مدين شعيب الغوث، ص 43

5- ينظر المرجع نفسه، ص 35، 36

6- ديوان أبي مدين شعيب الغوث، ص 13

أن يفهم عن الله؛ ذلك أن اليأس والقنوط وسوء الظن هي من تهدد اليقين، لذا فاللجوء الحقيقي ينبغي أن يكون للملك اللطيف:

يَا أَرْؤْمَ لَمْ أَخَشَ مِنْهَا خَطْباً يُبْسُ ** وَحُسْنُ ظَنِّي بِاللَّهِ مُمْتَرِجٌ
يَا أَرْؤْمَ سَابِقُ فَضْلِ اللَّهِ ضَامِنَةٌ **** ذِلَّاهُ الدَّهْرُ أَنَّ الضَّيْقَ يَنْفَرُجُ
يَا أَرْؤْمَ كَمْ كُرْبَةٍ دَهْيَاءَ قَدْ دَهَمَتْ **** وَاللُّطْفُ فِيهَا مَعَ الْأَنْفَاسِ يَنْدَرُجُ¹

نلاحظ الشاعر ملتجئاً لله في ضعفه وضيق حاله وكربه، لا يطلب من سواه الغوث فلا يستعظم الأزيمة أمام عظمة الله ولطفه وفضله، فهو هنا متحقق بصفات عبوديته ضعفاً وعجزاً وذلاً وفقراً، متعلق بأوصاف ربوبية الله العز والقوة والقدرة والعلم والغنى... وملخص هذا ما جاء في الحكمة العطائية "كن بأوصاف ربوبيته متعلقاً، وبأوصاف عبوديتك متحققاً"² هذا التحقق يجعله يدخل في المراقبة فيتخلق باسمه الرقيب عز وجل:

ثم صيرتني رقيب ذاتي *** وأنت كنت الرقيب³

ونجد في قصيدته الأولى أن العاشق لما تحقق من اسم ربه القادر المحسن، راح يطرح أسئلة استنكارية يمكن أن تكون موجهة للمتكلم نفسه أو للمتلقي، حيث نجده متحققاً بأوصاف عبوديته افتقاراً ولجوء وانكساراً وتذلاً لله القادر، العليم، العزيز، القوي يقول:

وَمِنْ أَيْنَ أَخْشَى مِنْ عَدُوِّ إِسَاءَةٍ * وَسِرْكَ طَافَ مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ
فَكَمْ كُرْبَةٍ نَجَيْتَنِي مِنْ غَمَارِهَا ** وَكَأَنْتَ شَجَى بَيْنَ الْحَشَا وَالْتَرَائِبِ
فَلَا قُوَّةَ عِنْدِي وَلَا لِي حِيلَةٌ *** سَوَى أَنْ فَقَرِي لَجْمِيلِ الْمَوَاهِبِ⁴

يرى الشاعر لطف الله عز وجل نازل به؛ فقد أحسن إليه فيما مضى بالستر، ولا يشك في لطفه في الحاضر والآتي، فلا نافع ولا ضار إلا هو على الحقيقة، فهو يعرف حقيقة أفعال الله، وهو يستغيث به باسمه القادر، متعلق به افتقاراً إليه، مبدياً ضعفه ومسكنته وفقره إليه، متجرداً من حوله وقوته، وقد تحقق من لطف الله وستره، فلا يخاف ولا يخشى أحداً سواه، وهو ما عبّر عنه السؤال "كم كربة نجيتني من غمارها" ليؤكد حقيقة أن الله ينجيه من كل كربة. فالله هو المحسن / القادر / الستار / اللطيف / النافع / الضار فكل اسم يسلم للاسم الذي بعده وهكذا في عقد، أسماء متعاقبة متعاقبة ترشد السالك، فالشاعر متحقق من اسم ربه متعلق به فلكل اسم أثر، وهو ما ينتج حالاً فنجد الاسم يغلق باب الهاجس والخاطر الذي يصول ويجول في النفس ويكدّر صفوها.

1- ديوان أبي مدين شعيب الغوث، ص 16

2- ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية، ص 66

3- ديوان أبي مدين شعيب الغوث، ص 49

4- المرجع نفسه، ص 13

وفي قصيدة أخرى يقول:

يَا أَرْزَمَ الشَّدَّةِ الْعُظْمَى سَتَنْفَرُجُ **** إِنَّ الشَّدَائِدَ مَفْرُوضٌ بِهَا الْفَرْجُ
يَا أَرْزَمُ لَمْ أَحْشَ مِنْهَا خَطْباً يُبْنَسُ **** وَحُسْنُ ظَنِّي بِاللَّهِ مُمْتَنَزُ¹

في الأزمات حيث شواهد الامتحانات والابتلاءات القاسية التي تمتحن إيمان المؤمن أين يتجلى الله على عبده باسم القابض، نجد الشاعر في قصيدته الطويلة يخاطب الأزمة بكل يقين وإيمان، متحققاً بأسماء الله الحسنى من خلال حسن الظن بالله، والرجاء في كرم الله، واليقين أن اللطف ينزل مع الشدة وأن فضل الله سابق، حيث وردت كلمة "أزمة" بتاء مربوطة مرتين فقط من أصل واحد وأربعين بيتاً، مع جمل خبرية مؤكدة أن الشدة ستنفرج، والسين تدل على القرب لا التسويف، فهو يقين لا يخامره شك. "اليقين هو العلم الذي لا يزاحمه وهم، ولا يخالطه ريب، ولا يصحبه اضطراب مشتق من يقن الماء: إذا حبس ولم يجر، شبه به العلم إذا صحبتته الطمأنينة، ولم يبق للقلب فيه تحرك ولا اضطراب، وإشراق نوره وهو ظهور أثره على الجوارح."² أما بقية الأبيات في هذه القصيدة، فنجد تكرار كلمة "أزم" دون تاء مربوطة في صدر كل بيت، في المقابل نجد اللعب اللغوي بالكلمات في نهاية كل بيت عبر الجناس والاشتقاقات، الأفعال (بهج، مهج، لهج، أرح، منبلج، مبتهج، ممتزج...) وهي تحمل دلالة هامة هي الحركية في مقابل ثبات الاسم "الأزم". فهناك تعلق على المستوى الدلالي والروحي، يثي بتلذذ خفي وراء المنع / المحنة / الشدة / الأزمة وكأن حب الله في شواهد الامتحان يتدفق ويظهر؛ حيث يطرق كلمة "الأزم" بإزميل اليقين فيجعلها لا تعظم بجوار العظيم.

بشكل متفاوت في تستره يلوح الحب الإلهي في هذه القطع الشعرية، فخلف كل شدة وأزمة يقف الحب للرد عليها ومساءلتها في صيغ مختلفة، ووراء هذه المعاناة الظاهرة يتحقق الحب على الجوارح والقلب والسريرة بالتعرف على الله في البسط كما في القبض، فيصبح اليقين هو الرد على كل هواجس النفس خوفاً وقنوطاً ويأساً. هنا حيث يخرج تجربته الباطنية المحبة لله إخراجاً جمالياً بديعاً.

ومن اللطيف الإشارة إلى هذه الفطنة اللغوية في كتابة "أزم" مقطوعة الصلة عن التاء المربوطة والتي تشير إلى دلالة روحية عميقة فلا أزمة تشتد فتخفق المؤمن، أو تضيق بالإنسان الأرض على وسعها، مادام متيقناً أن أمره بيد الله والمشيتة مشيئته جل في علاه.

إن العبد في علاقته بأسماء ربه ومعانيها ومعرفتها والتحقق والتخلق بها سيستعظم ما ينكشف له من صفات الجلال هنالك حيث "يصير العبد ربانياً، أي قريباً من الرب تعالى، وبه يصير رفيقاً للملأ الأعلى من الملائكة، فإنهم على بساط القرب.³ فيتصف العبد بصفات ربه ويتحلى بأسمائه الحسنى. بناء عليه تتجلى أسماء الله وأفعاله وصفاته على العبد في الوصول إلى حق اليقين.

1- ديوان أبي مدين شعيب الغوث، ص 16

2- ابن عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ص 316

3- ينظر الغزالي: المقصد الأسنى، ص، ص 45، 46

5. خاتمة

وفي ختام هذه الورقة البحثية التي حاولنا من خلالها محاورة واحد من نصوصنا التراثية وإبراز ما فيها من قيم روحية عليا، فتطرقنا تحليلا ومناقشة لقضية التجليات النورانية الإلهية على العبد من خلال الأسماء الحسنى داخل ديوان أبي مدين التلمساني ووصلنا إلى النتائج الآتية :

تعد قضية التزكية والتربية الروحية موضوعا غير مطروق بكثرة في الدراسات الأدبية للشعر الصوفي مقارنة بالاهتمام الكبير الذي يوليه الدارسون لجمالية النص وفنياته، فالنص الصوفي يستمد موضوعاته ومعجمه ورؤاه من منهج في تربية النفس للقيام بهضة روحية، فالصوفي يفر أولا من الخلق إلى الحق، ثم يرجع إلى الخلق مرشدا ومربيا، ذلك أن التصوف في التحليل الأخير هو علم سلوك وتحرر من عبودية ما سوى الله بالإجمال والتفصيل كما يقول أبو مدين الغوث.

إن ديوان أبي مدين الغوث الفقيه الصوفي، الشاعر المجاهد، الذي وقفنا عند بعض قصائده يحمل في عالمه الدلالي وكونه الروحي مشروع إصلاح الإنسان من الظاهر للباطن، وإصلاح علاقته بربه، فالهضة الروحية يبرز شعاعها من الداخل، حين تتوفر اليقظة بالله مع الله، ويصل العبد إلى اليقين ويبلغ الكمال الذي لن يتحقق إلا بالتوبة والإنابة والمراقبة والمحاسبة، وهي في مجموعها سلوك عملي في طريق الإصلاح والهضة الروحية، الذي يتسم بعلو الهمة الذي تهبه أسماء الله الحسنى للعبد.

يجمع ديوان أبي مدين الغوث بين اللغة الشعرية العليا والتربية الروحية ويؤكد على مفهوم المحبة الإلهية بوصفها رأس المعرفة، مثنيا على الله بالأسماء الحسنى وصفاته وأفعاله، غنيا به مستغنيا عما سواه وهو ما يهبه تجليات وأنوارا، ويكشف له أسراراً، فللاسم أثر على العبد، وحظّه منه المشاهدة والشوق والاستعظام ثم أخيرا يصبح عبدا ربانيا. واليقين هو من أعظم التجليات الإلهية النورانية للأسماء الحسنى على العبد.

إن حب الله الذي تغنى به الصوفيون وهاموا فيه نور في طريق السالك، يرفع همته فيشتد تعلقه بربه، حينها لن يخاف ولن يرجو إلا إياه، يحسن إلى خلقه متخلقا بأسماء ربه. ومن ثمار الاتصاف والتخلق بصفات الله وأسمائه: الفتح والمعرفة، فلا يستعظم العبد شيئا من محن وفتن وأمور الدنيا حين يعرف الله ربه العظيم الوهاب القادر الجبار على الحقيقة.

مما لا شك فيه أن هذا الموضوع أثر أسماء الله الحسنى في الإنسان من خلال علاقته بربه ونفسه والغير كما هي في التراث الصوفي الإسلامي (شعرا ونثرا) موضوع جدير بالتنقيب والبحث، وعليه فمن موقعي هذا أوصي بالبحث في تراثنا والعودة إليه نقديا للكشف عما يكمن فيه من قيم فنية راقية ودروس أخلاقية مستمدة من ديننا ومن موروثنا الثقافي.

6. قائمة المراجع:

- القرشي، سليمان وسعود، عبد القادر، (2011)، ديوان أبي مدين شعيب الغوث، لبنان، كتاب – ناشرون.
- إبراهيم، محمد زكي، (1986)، أبجدية التصوف الإسلامي بعض ماله وما عليه، مصر، مؤسسة إحياء التراث الإسلامي.
- ابن أبي طالب، علي (1999)، نهج البلاغة، لبنان، مؤسسة المعارف.
- ابن عجيبة، عبد الله أحمد، دت، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، مصر، دار المعارف.
- ابن عجيبة، عبد الله أحمد، دت، معراج التشوف إلى حقائق التصوف، المغرب، مركز التراث الثقافي المغربي.
- ابن عربي، محيي الدين، دت، الفتوحات المكية، ج7، 8، لبنان، دار الكتب العلمية.
- ابن عربي، محيي الدين، (1419هـ)، كشف المعنى عن سرّ أسماء الله الحسنى، إيران، منشورات بخشايش.
- الجوزية، ابن قيم، (1427هـ)، بدائع التفسير، المجلد الأول، السعودية، دار ابن الجوزي.
- حمدي، أيمن، (2000)، قاموس المصطلحات الصوفية، دراسة تراثية مع شرح اصطلاحات أهل الصفاء من كلام خاتم الأولياء، مصر، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.
- خفاجي، محمد عبد المنعم، دت، الأدب في التراث الصوفي، مصر، دار غريب.
- زروق، أبو العباس أحمد، (2012)، إعانة المتوجه المسكين إلى طريق الفتح والتمكين، تونس، دار الإمام ابن عرفة.
- السكندري، ابن عطاء الله، (1988)، الحكم العطائية، مصر، الأهرام للنشر والترجمة.
- السكندري، ابن عطاء الله، (2002)، الله، القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد، مصر، مكتبة مدبولي.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، (2003)، المقصد الأسنى، لبنان، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، (2005)، إحياء علوم الدين، لبنان، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع.
- القشيري، أبو القاسم عبد الكريم، (1986)، شرح أسماء الله الحسنى، لبنان، دار آزال للطباعة والنشر والتوزيع.

7. Bibliography List

- Al-Qurashi, Sulaiman, & Saud, Abdul Qadir, (2011), Abu Madyan Shu'ayb al-Ghawth's Poetry Work, Lebanon, Books – Publisher.
- Ibrahim, Muhammad Zaki, (1986), The ABCs of Islamic Sufism, Virtues and Disparities, Egypt, Society of Islamic Heritage Revival.
- Ibn Abi Talib, Ali, (1999), Nahj al-Balagha (Lit. The Path of Eloquence) Lebanon, al-Ma'arif Foundation.
- Ibn 'Ajiba, Abdullah Ahmed, (n.d), Inspiring Minds with Wisdom's Foundation In al-Ḥikam al-‘Aṭā’iyah Profound Explanation, Egypt, Dar al-Ma'arif
- Ibn 'Ajiba, Abdullah Ahmed, (n.d), The Anchor of Devotion to the Depths of Sufism's Ocean, Morocco, Moroccan Cultural Heritage Center.
- Ibn Arabi, Muhyiddin, (n.d), The Meccan Revelations, (Vol 7,8) Lebanon, Dar al-Kutub al-Ilmiyya.
- Ibn Arabi, Muhyiddin, (1999), Unveiling the Deep Meaning of the Beauty in Allah's Naming, Iran, Bakhshayesh Publications.
- Ibn Qayyim al-Jawziyyah, (1427 AH), The Marvels of Quran Interpretation, (Vol. 1), Saudi Arabia, Dar Ibn al-Jawzi.
- Hamdi, Ayman (2000). A Study of Sufi Terminology: Dictionary of Sufi Terminology :Analyzing the Terms of the Ikhwān Al-Ṣafā (The Brethren of Purity) through the Teachings of the Last Saints, Egypt, Dar Qibaa Press.
- Khafaji, Muhammad Abdul-Mun'im, (n.d), Literature in Sufi Heritage, Egypt, Dar Gharib.
- Zarruq, Abu al-Abbas Ahmad, (2012), The Guide of a Needy Seeker to an Able and Empowered Speaker, Tunisia, Dar al-Imam Ibn Araf.
- Al-Sakandari, Ibn 'Ata' Allah, (1988), al-Ḥikam al-‘Aṭā’iyah (The Aphorisms of Ibn 'Ata' Allah), Egypt, Al-Ahram for Publishing and Translation.
- Al-Sakandari, Ibn 'Ata' Allah. (2002), Allah: The Pure Intent in Grasping the Singular Name's Content, Egypt, Madbouly Library.
- Al-Ghazali, Abu Hamid Muhammad ibn Muhammad, (2003), The Supreme Aim in Explaining Allah's Beautiful Names, Lebanon, Dar Ibn Hazm Press.
- Al-Ghazali, Abu Hamid Muhammad ibn Muhammad, (2005). The Revival of Religious Studies, Lebanon, Dar Ibn Hazm Press.
- Al-Qushayri, Abu al-Qasim Abdul Karim, (1986), Explanation of Allah's Beautiful Names, Lebanon, Dar Azal Press.